

من شعر الشيخ السيد عبد الحميد الزهراوي

١٢٨٨ - ١٣٣٤ هـ = ١٨٧١ - ١٩١٦ م

جمعها وضم لها: عبد الإله نبهان

أوائل حزيران من عام ١٩٦١ أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية مهرجان الفكر والعقيدة لتكريم ذكرى الشهداء : عبد الحميد الزهراوي ، رفيق رزق سلوم ، عزة الجندي . وكان من ثمار هذا المهرجان وذكرياته كتاب جمع المحاضرات التي ألقى ، وكتاب آخر اشتمل على ما عثر عليه من مقالات السيد الزهراوي ، جمعها الدكتور جودت الركابي ، والدكتور جميل سلطان ، من أعداد جريدة الحضارة الأسبوعية التي كان يصدرها الزهراوي ، ووسم الكتاب باسم : الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي ، وقد فاتها المقالات التي اشتمل عليها المجلد الأول لأنهما لم يعثرا عليه (١) . كما فاتها مقالات أخرى نشرت في مجلات ذلك العهد وصحفه (٢) وقد جمع حفيده السيد خالد الزهراوي (٣) قسماً كبيراً منها نامل أن يتم به عمل المجلس الأعلى .

عرف السيد عبد الحميد الزهراوي بمقدرته على قرض الشعر وارتجاله واستخدامه في المحاوراة والمراسلة . ويبدو أن شعره قد ضاع في جملة ما ضاع من آثاره في حملة التفتيش والاتلاف التي شنها الأتراك على بيته بعد القبض عليه ، ويظهر من عبارة صديقه الشيخ أحمد نبهان (٤) : « وله شعر لطيف في كل باب من أبواب الشعر ومقطعات ومساجلات مع بعض أصحابه ، ومراسلات كلها رقائق (٥) » أقول : يظهر من هذه العبارة أن شعره ليس بالقليل ، وقد أشار جامعاً لكتاب (الارث الفكري) الى شعره بقولهما : « ويقال أنه كان يقرض الشعر وليس في أيدينا شيء منه أصلاً (٦) »

وقد ساق المصادفات الي شيئاً من شعر الشيخ ، وجدت قصيدتين بخطه ، وقصيدة ثالثة عبارة عن رسالة شعرية طبعت في كتاب محدود التداول ، كما وجدت حوارية شعرية

بينه وبين شيخه مصطفى الترك (٧) . وحفظت هذه الأوراق ثم خطر لي أن أتصفحها فوجدت القصيدتين قد اهترأت أوراقهما ، وتأكلت ، فرأيت أن تصويرهما ونشرهماخير من خزنهما وربما يكون ذلك أجدى للدرس والتاريخ والذكرى من اهمالهما .

□ القصيدة الأولى :

عثرت عليها عندما كنت أفتش أوراقاً قديمة خلفها الشيخ أحمد نبهان وقد كتب في أعلى الورقة : « من نظم المرحوم عبدالحميد أفندي الزهراوي وهذا خطه » ولما رجعت الى الترجمة التي كتبها الشيخ أحمد نبهان لصديقه الزهراوي ونشرها في المجلد الحادي والعشرين من مجلة المنار ، وجدته قد نشر هذه القصيدة بعد الترجمة ، ولكن مجلدات المنار الآن بحكم النادر والمفقود ، وقد عز على ناشري مقالات الزهراوي العثور عليه ، ولذلك لا يعد نشرها الآن تكراراً بقدر ما هو احياء لقصيدة هي بحكم المفقودة ، وهي أجود ما عثرنا عليه من شعره على الرغم من طابعها الفلسفي الفكري ، لأنها عبارة عن خلاصة تأملات الشيخ في الكون والانسان وأسرارهما، وفيها تظهر غلبة الطابع الفلسفي والمنطقي على الشيخ ولا شك أنه نظمها في أواخر حياته وقمة نضجه ، وقد قدمها الشيخ أحمد نبهان لقراء المنار بقوله : من ألطف شعره القصيدة العصماء في موضوعها وحسن أسلوبها ودقة معناها ، وقد أثبتتها برمتها ليقف المطالع لها على رسوخ قدمه رحمه الله تعالى وبعد أفكاره وحسن يقينه واعتقاده (٨) »

□ القصيدة الثانية :

وهي عبارة عن سبعة أبيات وجدتها بين أوراق الشيخ أحمد نبهان ، وقد كتبت بخط جميل يغلب على ظني أنه خط الزهراوي ، والقصيدة تصور ثقة الشيخ المطلقة بربه ، فهو لا يعبأ بالمصائب ولا الخطوب ، وهو مؤمن راسخ بالايمان بالقضاء والقدر خيره وشره وعدالته ، وبعبج الانسان عن ادراك حكمة الخالق ، فللرب سر غامض وجليل . وهذه الأبيات لم تنشر قبل الآن .

□ القصيدة الثالثة :

ليست لهذه القصيدة قيمة القصيدتين السابقتين لأنها رد على رسالة شعرية عادية ، وهي تمثل نمط المراسلات الشعرية في ذلك العهد . وقد عثرت عليها في كتاب عنوانه : (العلامة الشيخ عبدالقادر القصاب) (٩) وفيه قسم لمراسلات الشيخ الشعرية ، ومنها رسالة بينه وبين الزهراوي ، فأثبت القصيدتين معاً .

المحاورة الشعرية :

أما الحوار الشعري الذي أشرت اليه بين الزهراوي والترك فقد كتب بقلم الرصاص ، ومحا الزمن أو كاد كثيراً من كلماته ، وأرجو أن أدفعه للنشر عندما أتمكن من قراءته .

وختاماً فانني أرجو أن أكون بجمع هذه القصائد الثلاث قد قدمت نموذجاً من شعر الشيخ الشهيد الذي ذهبت به بلایا الغدروكوارث الاستبداد ، كما أطاح بصاحبه جور الترك وعسف أحكامهم . وسأكتفي بإيراد القصائد ولن أثقل على القارئ بترجمة الزهراوي الذي كتب عنه الكثير مكتفياً بالاحالة الى أهم المراجع وأقربها (١٠) .

★ ★ ★

القصيدة رقم (١)

لا تكذبنا يا بصر	لا تخدعينا يا فكر
ان العدايق تحت طسي	النشر فوق المنتظر
لكن برؤيتها دعا	وى الناس تعيي من حصر
وسوى سراب لم يروا	والآل كم غرّ النظر
أنى التصور يا حجا	للسر في هذي الصور
الكون مبني على الـ	حركات كل في قدر
مجموع ذرّ يقتضي	كل لها ضمّ الآخر
والأرض تجمعنا فنحسب	أنها احدى الكبير
والشمس تعربنا لنا	فنظننا المعنى الأغر
صور تغيّر لا نعي	صفة لها غير الغير
ويجل مصدر أمرها	عن أن تحيط به الفكر
هو مصدر بوجوده	تقضي اشتقاقات الأثر
وتعيرت في ذاته	وصفاته فطن غرر
والخبرة المثلى التبا	عد عن دعاوٍ للغبر
كم مدع لمعارف	علياء عرف بالنكر
ما أنت يا انسان هل	تدري دماغك لم شعر
أفانت تدرك من جميع	ع الكون عنه قد صدر
لم ذي الدعاوى يافتى	أ أحاط منك به البصر
أ أحاط منك به العجا	خبراً كما هو فانسبر
أعرفت من قبل المؤث	ر كل تفصيل الأثر

أعرفت هذاك الفضـا
دع عنك دعوى واستمع
الناس عثر" في الغـرو
ويرى بنو الانسان أنـ
دعوى بها يسلون ما
فهمو رهان الكدح ما
ذو الحال نائب من مضى
سيان ذي الأنعام في
فتسل" مهمما اسطعت ان
واعبر على المقياس من
واعلم بأن المفلحيـ
والكون ظرف ظواهر

ء وما به من كل ذر
قولا مفيداً مختصر
ر ولاجئون الى الفـرر
همو خلاصة ما فطر
يلقون من تعب وضر
داموا وتلك هي السير
والعمر جملة خبر
حاج الحياة وذا البشر
فكرت فيما قد حضر
ماض الى ما ينتظر
ن بذى الحياة أولو العبر
والسر فيه ما ظهر

★ ★ ★

□ القصيدة رقم (٢)

وثقت بربي لا أخاف اذا بدا
فتم ساكناً يا قلب ان هب مزعج
تتابعت الأدهار توحى بأمره
وكم روت الأدهار يسراً لعسرة
وعندي وراء الكل وحي بروحه
فلا تكثرن الهم في كل طارئ
وتأتي عنايات وتبدو مراحم

من الدهر خطب انه لكفيل
عساه بتدبير القدير يزول
من الأمر ما حارت لديه عقول
سمعنا وأبصرنا وصح دليل
لروحي لا ريب" اليه يطول
فان تماثيل الجفاء تحول
وللرب سر غامض وجليل

★ ★ ★

□ القصيدة رقم (٣)

من كتاب : (العلامة الشيخ عبدالقادر القصاب) تأليف وجمع محمد وفا القصاب
المطبعة العلمية بدمشق - ملتزم الطبع عبدالوكيل الدروبي ص ١٨٣ - ١٨٤ .

بين يدي هذه القصيدة :

كان بين الشيخ أي عبدالقادر القصاب - رحمه الله تعالى - والشيخ الشهيد عبدالحميد
الزهرراوي صداقة حميمة انعقدت في مصر ٠ ولما قدم دير عطية دعاه الشيخ الزهرراوي
لزيارة حمص بكتاب وقصيدة فاعتذر الشيخ بقصيدة أثبتتها فيما يلي وتليها قصيدة
الزهرراوي :

أ - قصيدة القصاب :

يا قلب ما لك لا تطيق قرارا	وأراك تدمن للصبا تذكارا
دع عنك ما قد كان في زمن الصبا	وخذ العبادة ديدنا وشعارا
واحث مطيك نحو حمص قاصدا	ذاك الضريح الممتلي أنوارا
أعني به فخر الصغابة خالدا	أسد الاله وسيفه البتارا
يهوى الاله محبة ويحبه	ويحط عمّن زاره أوزارا
فهو الملاذ لكل راج أمّه	وهو المجلل هيبة ووقارا
واعطف على أحبارها وخيارها	تقضي المراد وتبلغ الأوطارا
واجعل سميرك كل حبر راسخ	غنت بلابل فكره أسحارا
وأطال في التحصيل جبل سهاده	والنوم من عش العيون أطارا
لا سيما كنز الفضيلة والتقى	بحر الشريعة فيضها المدرارا
عالي المنار ومجمع البحرين من	قد طاب أصلا واعتلى مقدارا
عبدالحميد أبو المحامد والثنا	روض الكمال المزدهي أزهارا
ولقد حباني من عظيم هباته	ما زادني في فنه استبصارا
أهدى الي قصيدة فكانما	أهدى الي العلم والأسرارا
فقبلتها ومحبة قبلتها	وتلوتها بين الكرام جهارا
ورفعتها كرمأ مكانا عاليا	وغدوت حمّادا له شكارا
فجزاه في هذا الصنيع الهه	ما قد أحب من العبا واختارا

وأدام دولة مجده وهدي به
 لم لا يكون كما وصفت وقد بدا
 يا من دعائي أن أزور جنابه
 عذراً اليك وأنت حر كامل
 اني قريب العهد من سفر وقد
 فاذا أتى فصل الربيع آتيتكم
 من ضل أسباب الهدى واحتارا
 للناس بدر كماله وأنارا
 لأنال تشريقاً به وفخارا
 والحر فضلا يقبل الأعذارا
 أخشى بذاك البرد والأمطارا
 ان شاء ربي طائعاً مختارا

ب - قصيدة الشيخ الزهراوي :

بدر الهدى للشام ودّ مسارا
 فسرى لها من مصر يصحبه السنا
 فاستبشرت هذي البلاد وأشرقت
 وغدت تباهي مصر اذ ربحت به
 ذاك الذي اتخذ العبادة حلة
 البحر عبدالقادر السامي هدى
 قد نال كل الشام منه سعادة
 فلتشكروا رباً حباكم نعمة
 هذا الذي في الدين يحسب كوكباً
 ويعد غيثاً للقلوب لأنه
 ويعد بحراً منه يخرج لؤلؤ
 والي أهدي منه عقداً باهياً
 يا سيد العلماء والفضلاء يا
 قلدت فيها العنق وهي جديرة
 مهما شكرتك أو مدحتك انني
 فاقبل دعائي والتحية وارضين
 أبقاك مولانا لبث الخير ما
 والبدر يحسب كوكباً سيّاراً
 والنور شيء يصحب الأقماراً
 بيزوغه اذ عمها أنواراً
 بحرأ يفوق بدره التياراً
 والعلم برُداً والصلاح شعاراً
 البر عنه فاسأل الأبراراً
 لكنكم فقتم به مقداراً
 عظمت فلن تحصوا لها معشاراً
 يهدي به الساري اذا ما حاراً
 يروي الحديث فينعش الأسراراً
 بجميل رونقه العقول حياراً
 من نعته قد صاغه فأناراً
 سعد البلاد وغيثها المدراراً
 لا العنق لكن كان ذا ايثاراً
 لجليل نعتك لم أكن حصّاراً
 جهد المقل وسامح المعشاراً
 أهدي الصلاة حبيبته المختاراً

□ الحواشي :

- ١ - كان هذا المجلد - فيما علمت - لدى المرحوم عبدالحميد الحراكي ، وهو الآن بعوزة الأستاذ بشير الزهراوي .
- ٢ - على سبيل المثال لا الحصر مقالاته التي نشرت في المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا في القاهرة . ومقالاته في مجلة الانسانية التي كانت تصدر في حماة .
- ٣ - خالد عبدالظاهر الزهراوي ، شاعر مبدع ، ومثقف لامع من مواليد حمص سنة ١٩٢٩ وهو حفيد الشيخ الزهراوي من جهة ابنته ، لأن الشهيد الزهراوي لم يخلف سوى بنتين .
- ٤ - احمد بن عمر نيهان : كان من علماء حمص البارزين ووجهها في آخر العهد العثماني ولد عام ١٨٥٢ في حمص وتوفي فيها حوالي عام ١٩٤١ .
- ٥ - المنار : المجلد ٢١ ص ٢١٢ .
- ٦ - الارث الفكري : المقدمة د
- ٧ - مصطفى احمد الترك من أصل تركي كان شاعراً على طريقة المتصوفة ، وكان معلم الشيخ الزهراوي في طفولته . ولم أعثر على تاريخ ولادته ولا وفاته .
- ٨ - المنار ، المجلد ٢١ ص ٢١٢ .
- ٩ - نشر الكتاب في دمشق وهو من تأليف وجمع محمد وفا القصاب .
- ١٠ - انظر ما كتب عن الزهراوي في المجلد ١٩ من المنار وهو كثير . وما كتب عنه في المجلد ٢١ من المنار أيضاً ، وانظر مقدمة الارث الفكري ، وكتاب مهرجان الفكر والعقيدة ففيه محاضرات هامة عنه وخاصة محاضرة الامير مصطفى الشهابي : وانظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥ : ١٠٤ وقد سرد كثيراً من المراجع عن الزهراوي والأعلام للزركلي ٣ : ٢٨٨ وفيه ان ولادته سنة ١٢٧٢ هـ . ومن مراجع الزركلي تاريخ الصحافة العربية لدي طرازي ٣ : ٢٨ ومنتخبات التواريخ لدمشق ٩٢٦ وايضاحات المسائل السياسية ص ١١٥ وهو كتاب أصدرته الدولة العثمانية وضمنته وقائع المحاكمات وحشيات الاحكام التي أصدرتها بحق شهداء أيار . كما كتب عنه الذين كتبوا عن تاريخ الفكر السياسي والنضال القومي الحديث كالأستاذ منير مشابك موسى والبرت حوراني وغيرهما ، كما نشرت مجلة التراث العربي مقالة عنه كتبها الأستاذ راتب الحلاق .

